الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزراة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة 08 ماي 1945 قالمة

كلية الآداب واللغات
قسم اللغة والأدب عربي

الأستاذة: إيمان حراث

المستوى: سنة ثالثة ليسانس

تخصص: دراسات أدبية

الأفواج: (ف1+ف2+ف3)

الحصة التطبيقية الثانية عشرة:

نموذج من طوق الحمامة

الحصة التطبيقية 12

نموذج من طوق الحمامة

عرف أسلوب ابن حزم بالسلالة والشعرية إذ يقول بعض المؤرخين عن "ابن حزم" أن نثره لا يكاد يفترق عن شعره من حيث الجرس والموسيقى الداخلية والسلامة والتلقائية والسهولة ويمكن إجمال السمات الأسلوبية للكتاب في النقاط الآتية:

كثرة الاستشهاد بالقرآن الكريم، والحديث النبوي الشريف، فسعة ثقافته الدينية واضحة جدا وانعكست على مؤلفه، كما نجد ثقافته الفلسفية بارزة في الطوق إذ يعتمد في التعريفات على الفلسفة ويزكيها بنصوص من القرآن، ويهتم بالعلل، والمقدمات والنتائج، فيمزج بين الفلسفة والنصوص الإسلامية مزجا بديعا، حيث كانت مدارس قرطبة تعج باليهود والنصارى، يدرسون علوم العقل من منطق وفلسفة، و يكنون في أفكار المسلمين ما يثير حيرتهم، كما يورد أقوال السلف الصالح ليؤكد ويبرهن على صحة ما يقول. فلو تصفحنا كتاب طوق الحمامة لوجدناه قلما يخلو من إشارات تاريخية، إن مفكرنا الأندلسي كان يشعر شعورا واضحا بأن الحاضر ثمرة الماضي.

1. أهمية الكتاب:

تكمن أهمية الكتاب في كونه يكشف عن شخصية ابن حزم من جهة، وعن الكثير من جوانب الحياة الأندلسية وأسرار الحكام والرؤساء، وما يدور في بيوتهم من جهة أخرى، كما يكشف عن الحقائق الخفية التي حدثت في المجتمع الأندلسي في القرن الخامس الهجري، خاصة الحياة الاجتماعية للطبقة الراقية كما سلط ابن حزم الضوء على وضع المرأة في قرطبة إذ يمكن استنتاج طبيعة حياتها ووظيفتها وأبعاد الحرية التي تتمتع بها.

فمن خلال الأخبار التي رواها ابن حزم عرفنا أن المرأة في ذلك العصر كانت صاحبة القرار في زواجها والرأي،وهذا ينتج من موقف جارية سعيد بن منذر، خلاصته أنه أمر أن يطلق سراحها فتنعم بحريتها ويتزوجها، فطاوعته على أن يخفف من بعض لحيته، فوافقها على ذلك، ثم دعا بعض وجهاء الناس ليشهدهم على حريتها، وزواجه منها، فلما أشهدهم على حريتها، حتى صرحت برفض الزواج منه

كما عرف ابن حزم بدور المرأة وأنشطتها في ذلك العصر كالماشطة والدلالة والمغنية والمعلمة والعاملات في النسيج وما أشبه ذلك.

وقد دفعت مشاركة المرأة في النشاطات الأدبية في الأندلس الأديباتالأندلسيات إلى مخالطة الرجال وحضور مجالسهم الأدبية و الانخراط في المساجلات الشعرية، حتى إن حفصة بنت الحجاج الركونية من شاعرات القرن السادس المهجري في غرناطة، كانت تسعى للعمل في وظيفة ديوانية لدى الخليفة الموحدي عبد المؤمن بن علي، و تدل الأخبار والحكايات الواردة عن الأندلسيينان اختلاط النساء بالرجال في تلك المجالس لم يكن مستنكرا، ومن أبرز الأدلة، على ذلك ما تناقلته المصادر الأندلسية من أخبار ولادة بنت المستكفي ونزهون بنت القلاعي الغرناطية

نستنتج من هذا أن مضمون طوق الحمامة عبارة عن قصة معمقة، قام ابن حزم بتفكيكها من البسيط إلى المركب، ومن المجرد إلى المحسوس، وما علينا الا استنباط العلاقات التي تربط بين مختلف هذه العوامل، ووظائفها في المسار القصصي.

2. المرأة في قرطبة من خلال طوق الحمامة:

كيف وجد المسلمون المرأة في شبه جزيرة ابيوريا غداة الفتح الإسلامي؟ سؤال من الصعب الإجابة عليه، لأننا نفتقد للوثائق التي تساعدنا على تحديد موقف المرأة، والبناء الأسري الذي كان سائدا في المجمع العربي والقرن الحادي عشر، الذي عاش فيه ابن حزم، حياته والسؤال الذي يفرض نفسه علينا هو بماذا تحدثنا نصوص طوق الحمامة عن المرأة؟.

لقد اتفق الباحثون كثيرا بوصفه دراسة في الحب، وعن المحبين ولكن من وجهة نظرنا أحد لم يقف طويلا على الحياة الاجتماعية في الأندلس، وكيف كان حال وواقع المرأة في الحياة على أيام ابن حزم.

يقول ابن بشكوال في كتابه : " كانت المكتبة تسير على نظام دقيق وراق للغاية، وتضم أقساما مختلفة، أحدها للنسخ ويعمل فيه مهرة الخطاطين، من فتيان وفتيات، واشتهرت بينهن لبنى كاتبة الخليفة نفسه، وكانت أدبية نحوية وعروضية رائعة الخط بصيرة بالحساب، ولم يكن في قصر الخلافة أنيل منها. وتميزت بينهن أيضا فاطمة بنت زكرياء بن عبد الله الكاتب الموف بالشيلاري، وكانت كاتبة جزلة وخطاطة ماهرة، وعمرت طويلا، فعاشت أربعة وتسعين عاما، كتبت فيه مئات الكتب الطوال" وهذه الحقائق تدل على المكانة العظيمة التي كانت تحتلها المرأة في بلاد الأندلس خلال النصف الأول من القرن

الحادي عشر ميلادي، ولا شك أن ميل الأندلسين الى التحرر، وانتهاز فرص العيش الرغيد، و حرصهم على تحقيق الانسجام مع ما وهبه الله للأندلس من غنى وترف، وجمال.

وفي الختام نؤكد أن ابن حزم الأندلسي ذرة في تاريخ الأندلس السياسي والفكري والأدبي، وقد عاش حياة مليئة بالمحن والمصائب قضاها مناضلا بفكره وقلمه أكثر من أربعين عاما، فهذه الظروف التي عاشها متغربا جعلته يعتصر ليتذكر أيام أفراح ويستعرض ذكرياته في كتابه طوق الحمامة، الذي يحتوي على رؤى جريئة تقول ما تعتقد وتعبر عما تجس فحياة الترف ألهمته رقة المزاج و غمرته بالمشاعر والمحافظة و الخلق الكريم، كما كان للرعاية الأنثوية الواسعة، التي أكسبته خبرة بأحوال النساء وإبراز نفوسهن أتاحت له الفرصة لكي يعيش التجارب العاطفية، وقصص الغرام، كما اطلع على العديد من أحوال العشاق فجعلته يبحث عن فلسفة الحب . ولكن المفكر الأندلسي الكبير الذي رأيناه حربا عنوانا على خصومه وسيفا متسلطا في مهاجمة أعدائه هو بعينه، الأديب الشاعر الرقيق، الذي وصف لنا الحب والمحبين بأجمل عبارة، وحلل لنا دوافع العشق وآفاته أعمق تحليل، ولا بد أن يكون القارئ قد لاحظ معنا كيف أن ذلك الفقيه، الورع، المندين، لم يكتب في الحب كتابة الشاعر، بل هو قد كتب بمثابة العالم النفساني المدقق مع ذلك فإنه لم يسلم من ألسن النقاد وتجريح الخصوم.

والحق أن ابن حزم حين كشف الحب فأنه لم ينس أن يتخذ من هذه الدراسة للحث على الفضيلة والدعوة إلى العفة، والابتعاد عن قبح المعصية، و هنا قد أضاف إلى تحليله النفسية نصائح أخلاقية قيمة، توج بها رسالته الجميلة في الحب .

المراجع المعتمدة:

1. عبد اللطيف شرارة، ابن حزم رائد الفكر العلمي، المكتب التجاري للطباعة والنشر، بيروت، لبنان د.ط، د.ت
2. الإمام علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي، تح: محمد يوسف الشيخ محمد وغريد يوسف الشيخ محمد طوق الحمامة في الألفة رسالة في صفة الحب ومعانيه وأسبابه وأعراضه، الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ط3، 1991م
3. ابن بشكوال، خلف بن عبد الملك، الصلة، الدار المصرية للتأليف والترجمة، 1966م